كيف تطور الخط العربى ؟

إن الخط الذى انتهى للعرب على الرغم من تعدد أسمائه ، فإن هذا التعدد لم يرجع إلى فوارق خصائص ، بل كانت فوارق تجويد ، حيث إن التسمية كانت تعنى المكان الذى جاء منه الخط أكثر منها توضيح الصفة الفنية للخط على قلتها ، ولم يكن للعرب من أسباب الاستقرار ما يدعوهم للابتكار فى الخطوط التى وصلتهم ، ولم تبلغ هذه الظاهرة لديهم مبلغ الظاهرة الفنية إلاّ عندما أصبحت للعرب دولةتعددت فيها مراكز الثقافة ، ونافست المراكز بعضها بعضاً .

وصل للعرب قبل الإسلام نوعان من الخطوط النبطية المتطورة إلى العربية : نوع شديد الجفاف مولد من خطوط العبرانيين والتدمريين كما يبدو فى نقش النمارة ونقش زبد ونقش حرّان ، ونوع آخر لين يميل إلى الاستدارة ، كان يستعمل فى التدوين وتأدية الأغراض اليومية التى تحتاج إلى سرعة ومطاوعة ، وهذا ما يرجح أن كتاب الوحى والخلفاء الأوائل قد استخدموا هذا الخط اللين وتراسلوا به .

وعندما أنشئت الكوفة جودت الصورة اليابسة من الخط النبطى وأبدعت فيها حتى عرف الخط باسمها وكتبت بهذه الصورة المصاحف، واستمر هذا الخط هو المفضل فى كتابة المصحف زهاء أربعة قرون .

ولأن الخط الكوفى جاف فإن الإبداع فيه كان محدوداً ، فتحوّل إلى الزخرفة المصاحبة للخط كما يبدو فى الخط الكوفى الفاطمى .. إن صورة كوفى المصاحف الحالية تكاد تكون هى نفسها التى كان عليها فى ذلك الزمان البعيد ، ولم يسعه أن يتطور ، وتكون الكوفة بهذا أول مدرسة فى تجويد الخط ، والغريب أن معرفة الناس بأنواع الخط تتوقف عند الخط الكوفى .

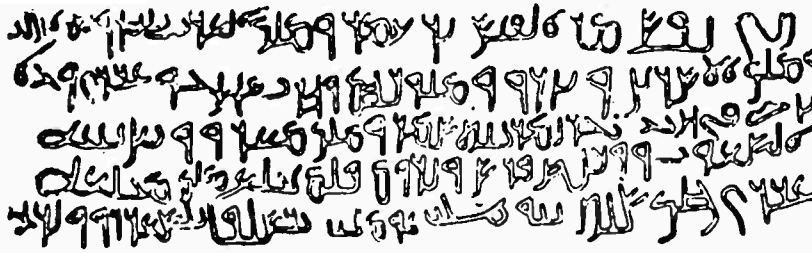

نقش النمارة

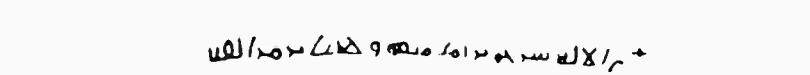

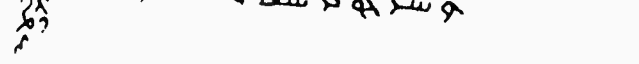

نقش زبد

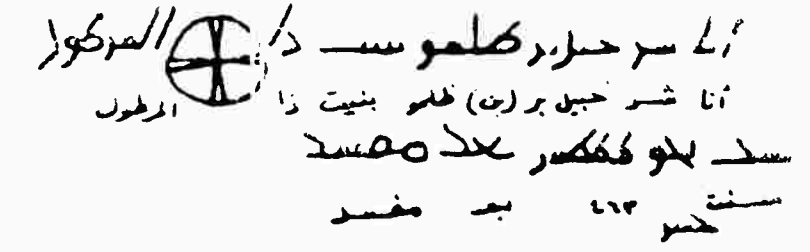

نقش حران

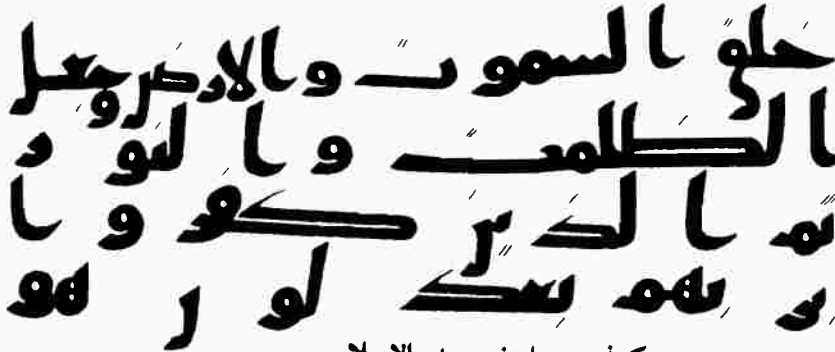

كوفي مصاحف صدر الإسلام

أما الصورة اللينة للخط العربى فقد احتاجت لقرون طويلةحتى تستوى وتبلغ تمام النضـوج ، وهذه المدة الطويلة جـداً هى التى أعطت للخط العربى أصالته وتفرده .

وتكمن عبقرية الفنان المسلم فى أنه أخرج الخط العربى من «العدم» ، فهناك حروف مرتفعة ، وأخرى منخفضة ، بعضـها كبير والآخر صغير جداً ، منها ما لا يسمح بعده بالاتصال ، ومنها ما يحتم الانفصال بعده، هناك أكثر من صورة للحرف الواحد مع الاختلاف التام فى الكتلة والامتداد الأفقى والرأسى بالإضافة إلى ليونة الحرف الكاملة .

ربما يكون هذا التنوع هو الفن بعينه ، حيث كان المطلوب فى البدء من الفنان الخطاط أن يلم هذا الشتات فى شئ يمكن أن يصلح مجرد كتابة ، لكن المعجزة أن يتحول «هذا الشئ» إلى فن هو من أعظم الفنون الإسلامية .

وعندما انتقلت الخلافة إلى دمشق بقيام الدولة الأموية انتقل مركز العناية بالخط إلى الشام ومن مجوديها «**قطب المحرر**» ، وبدأت أنواع الأقلام تزداد ، وبدأت هندسة الحروف فى العراق ، وتنسب إلى رجلين هما الضحاك فى خلافة السفاح وإسحق الذى عاش فى خلافة المنصور ووصلت أنواع الخط إلى اثنى عشر قلماً .

وقبل أن ينقضى القرن الثالث الهجرى كان «**إبراهيم السجزى**» قد أخذ من إسحق قلمه الجليل ، وهو أكبر الأقلام التى كان يكتب بها ، وولّد منه خطين جديدين هما خط الثلث وخط الثلثين .. ولأن الخطوط فى ذلك العهد لم تكن مختلفة اختلافًا كبيراً فيغلب أن يكون الخط الجليل هو الخط الطومار أى أن خط الثلث يكون $\frac{1}{3}$ خط الطومار ، وهذا هو السبب الرئيسى لتسمية الخط الثلث بهذا الاسم .

وانتهت جودة الخط بعد ذلك إلى الوزير العباسى «**أبى على محمد**

ابن مقلة» ، وكان أول من هندس الحروف بشكل شامل وضبطها على «النسبة الفاضلة» أى أن المقياس إذا زاد عليها أو نقص يكون الحرف خرج عن النسبة الفاضلة .

وممن يذكرون بتجويد الخط فى أوائل القرن الخامس الهجرى فى العراق : «**أبو الحسن على بن هلال المعروف بابن البواب**» . أما فى أواخر السابع الهجرى فبرز فى تجويد الخط **ياقوت بن عبدالله الرومى** المشهور بالمستعصمى والملقب بقبلة الكتاب .

ومنذ أواخر القرن الخامس الهجرى بدأ الخط العربى فى شمال الشام يتحول إلى صورتين رئيسيتين ، إحداهما خط النسخ المتطور من خطوط النساخ ، وحلّ محل الخط الكوفى فى المصاحف ، والصورة الأخرى هى صورة خط الثلث المتطوّرة من الطومار وحلّ محلّ الكوفى فى الأغراض التذكارية والمساجد .

وأصبح الحديث عن الخط العربى منذ ذلك التاريخ إنما هو حديث عن خطى الثلث والنسخ فانحصر الجهد فى تجويد هذين الخطين فكانت كل مدرسة تحسن فى شكل الحروف ، وفى طريقة اتصالها ، وكانت مراكز تجويد الخط تبدأ من حيث انتهت سابقتها ، وتراكمت هذه الخبرات الطويلة حتى كانت نهاية الجودة ، وكمال الاستواء فى المدرسة التركية فى ظل الدولة العثمانية . والتى أخذت الثلث من مصر وأخذت النسخ من السلاجقة ثم أضافت خطاً ثالثاً بينهما هو خط الإجازة ، وهو بحجم النسخ ولكن حروفه مشتركة بين النسخ والثلث .. ثم أضافت الرقعة والديوانى .

ومن أشهر الخطاطين الأتراك : حمد الله بن الشيخ الأماسى وأحمد قره حصارى ، وعاشا فى أواخر القرن التاسع وأوائل العاشر الهجرى ، ثم الحافظ عثمان ، وقد برز فى الخط النسخ .

وبلغ الخط الثلث قمته فى القرن التاسع عشر الميلادى على أيدى مصطفى راقم ، ومصطفى عزت ، وشفيق ونظيف ومحمد شوقى وعبدالله الزهدى وأحمد العارف والشيخ محمد عبد العزيز الرفاعى وغيرهم كثيرون ، فأصبح إبداع هذه المدرسة هو النبراس الذى يهتدى به كل متعلم للخط .

وبعد ثورة أتاتورك التى عصفت بالحرف العربى فى تركيا فى بداية القرن العشرين ، قدر لمصر أن تكون الحارسة لهذا الفن مرة أخرى ، وحملت الأمانة كاملة منذ محمد مؤنس وحتى محمد عبد القادر .. ومازالت .

أما الخط الفارسى فقد تطور داخل إيران واستوى فيها ، ثم انتقل إلى تركيا فى النصف الثانى من القرن السادس عشر على يد الخطاط «شاه قاسم التبريزى» .

والخط الفارسى «كما نسميه نحن فى المنطقة العربية» هو أصلاً خط النستعليق فلقد كان الفارسيون يكتبون فى السابق بخط متكسر يسمى «الشكَسْتَه» ثم تطور إلى خط التعليق ثم امتزج بالنسخ ليصبح النستعليق.

وأشهر من كتب الخط الفارسى هو مير على التبريزى للدرجة التى ينسب فيها إليه من كثرة ترويجه ونشره فى العديد من الأقطار ، على نحو ما ينسبون إلى الصدر الأعظم العثمانى شهلا باشا التجول بقصد العمل على نشر الخط الديوانى التركى .

ثلث ونسخ لأحمد قرة حصارى ، وهو يمثل المرحلة الأخيرة قبل اكتمال نضوج المدرسة التركية .

ثلث ونسخ لعبد الله الزهدى كاتب الحرم النبوى الشريف بالمدينة المنورة ، وهو أحد قمم المدرسة التركية عندما وصلت إلى ذروة تجويدها فى القرن التاسع عشر .

لوحة تجمع أنواع الخط العربى